مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: دراسة رحلة (الخمرة الحسية في الرحلة القدسية) للشيخ مصطفى البكري الصديقي 1099 - 1162هـ/1688 - 1749م
اسم الكاتب: د. بشرى خير بك
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2784
تاريخ الاسترداد: 2026/05/12 23:01 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

دراسة رحلة (الخمرة الحسية في الرحلة القدسية) للشيخ مصطفى البكري الصديقي 1099–1162هـ/1688–1749م

د. بشرى خير بك*

الملخص

تناول البحث المعنون (دراسة رحلة "الخمرة الحسية في الرحلة القدسية" للشيخ مصطفى البكري الصديقي 1099–1162هـ/1688–1749م) ترجمة لأحد أهم أقطاب التصوف في العهد العثماني في بلاد الشام، وهو الشيخ مصطفى البكري الصديقي الذي كان من أهم مشايخ الطريقة الخلوتية. فضلًا عن دراسة رحلته "الخمرة الحسية في الرحلة القدسية"[1] التي دونها بعد زيارته الأولى إلى بيت المقدس في العام 1710/1122.

هَدَفَ البحث إلى تسليط الضوء على سلوك الصديقي وتجربتة الصوفية من خلال رحلته التي دونها، لأنَّها تعطي صورة صادقة عن تصوف العلماء في تلك المرحلة، فضلًا عن التركيز على الطريق الجغرافي الذي سلكه الصديقي وصحبه، مع ذكر بعض المعلومات الاقتصادية والسياسية التي أوردها بشكل متناثر في معرض كلامه من خلال اتباع منهج وصفي استقرائي في طرح المعلومات التي وردت لتخدم فكرة البحث وأهدافه.

وتوخّى البحث الوصول إلى جملة من النتائج مثل معرفة طريق السفر الذي كانت القوافل تسلكه بين دمشق والقدس في أواسط العهد العثماني، وأهم الأولياء والصالحين الذين اهتم المتصوفة بزيارتهم والتبرك بهم، ومفهوم الخلوة الصوفية عند المتصوفة الخلوتيين، وعلاقة الشيخ بالمريد، وتصوف الفقراء من العامة، وأهم التصانيف (المؤلفات) التي وضعها الصديقي في أثناء وجوده في بيت المقدس.

---

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

[1] – حرصًا مني على الأمانة التاريخية فقد اعتمدت على المخطوط الأصلي وليس المحقق، لأن المخطوط أقرب إلى المؤلف من الذي تم طبعه، فضلًا عن أن المخطوط يحوي ملاحظات في الحواشي، فضلًا عن أنه يعطينا صورة واضحة عن الأسلوب اللغوي الذي استخدم في الكتابة في أواسط العهد العثماني، لذلك عندما اقتبست بعض العبارات لخدمة البحث لم أقم بتصويب ما ورد فيها من أخطاء لغوية ونحوية وإملائية.

A Study of Al Sheik Mostafa Al Bakri Al Siddiqi"s Travel to Al Quds: "*Al Khamrah Al Hisia Fi Al Rihla Al Qudsiah*" (1099-1162)/ (1688-1749)

Boshra Kir bek[**]

Abstract

This research titled "***Al Khamrah al Hisia fi al Rihla al Qudsiah***"_ a piece of travel literature by Al Sheik Mostafa Al Bakri Al Siddiqi (1099-1162 of Hijra) (1688-1749 AD)_ deals with a translation of one of the major poles of mysticism in the Ottoman period in the Levant. Al Sheik Mustafa al Bakri al Siddiqi was the most important chieftains of Khaluati way. This research deals with the study of al Siddiqi's ***Al Khamrah al Hisia fi al Rihla al Qudsiah***" (1122 Hijra year-1710 AD).

This research aims to shed light on the behavior of al Siddiqi and his mystical experience though his journey which he described and recorded in writing, because it gives a true image of the mystical scientists at that time. In addition to this, the study focuses on the geographical route which was taken by al Siddiqi and his fellow travelers, with a brief overview of the economic and the political situation then.

This research aims to reach a number of results: indicating the travel route taken by convoys in the mid Ottoman Era; looking at the most famous saints and righteous mystics who were visited by many disciples of mysticism and Sufism who sought their blessings; understanding the Khalwati concept and the relationship between the Sufi and his Murid, and finally introducing the most important classifications that al Siddiqi outlined during his stay in Al Quds

[**] Damascus University, Faculty of Arts and Humanities – History Department

أولًا: مقدمة البحث:

حرص أئمة المسلمين وعلماؤها منذ الفتح العمري 637هـ/1239م على شد الرحال إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه ونشر تعاليم الدين الحنيف، وأخذت أعداد من يفدون إليه تزداد يومًا بعد يوم، حتى وصل المئات من علماء وفقهاء وأئمة وعباد وزهاد وأقطاب صوفية، وبازدياد عدد الزهاد والمتصوفة الذين قصدوا القدس كانت هي ومن ثَمَّ تزداد قداسة بهم، وبمن ضم ثراها من أجسادهم الطاهرة، حتى أصبح منعكسًا للتصوف وتطوره عبر التاريخ الإسلامي.

وقد تُرجم هذا التطور الصوفي من خلال نشاط المتصوفة الثقافي، ووضعهم مصنفات تناولت مجمل مناحي الحياة، وكان للتصوف حظٌ وافرٌ منها لكثرة ما وضع من التصانيف في أثناء مجاورة بعض المتصوفة للأقصى، فضلًا عمَّا وضعه بعض المتصوفة من تصانيف بعد عودتهم من سياحتهم إلى بلدانهم أغنت المكتبات عامة والإسلامية خاصة بمعلوماتها القيمة والفريدة بمجالات عدّة، إلى جانب ما ورد فيها من تفصيل دقيق لسلوك المتصوف في أثناء سياحته "رحلته" بالتعبير الصوفي، وتأتي رحلة مصطفى بكري الصديقي ترجمة لإحدى هذه السياحات الصوفية.

ثانيًا: مصطفى البكري الصديقي:

هو مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محي الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري، والبكري الصديقي نسبة إلى أبي بكر الصديق، ولد في دمشق في ذي القعدة 1099 آب 1688 مكان استقرار عائلته[1] منذ قدوم جده الشيخ بدر الدين من مصر[2]، ومن خلال كتب التراجم يتبيّن أن هذه العائلة قد أنجبت

[1]– ينتهي آل البكري بنسبهم إلى أبي بكر الصديق، ومازالت الأسرة إلى يومنا هذا تحتفظ بوثائق تعود إلى القرن الرابع للهجرة يؤكد صحة نسبهم، وهم أسرة لها فروع في الحجاز ومصر واستانبول ودمشق، وتشير كتب التراجم إلى أن الذين برزوا في دمشق من آل البكري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يتحدرون من جد واحد عاش في القرن السادس عشر. وهكذا يبدو أن نجمهم قد سطع في دمشق في أعقاب السيطرة العثمانية، وبفضل أحمد بن كمال الدين البكري 1632–1695 الذي بلغ مرتبة عالية في القضاء وأصبح قاضيًا في دمشق توطدت مكانة العائلة، ومنصب القضاء لم يشغله أي دمشقي من قبل. للمزيد عن آل البكري وأهم المصادر التي تناولت آل البكري: شيلشر، ليندا، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، مطبعة دار الجمهورية، دمشق، ط1، 1998، ص 189–193.

[2]– المرادي: محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، 4 أجزاء، القاهرة، 1284هـ/1869م، جـ4، ص: 190. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 4 أجزاء، بولاق، 1297هـ، جـ1، ص: 165.

علماء وأدباء مشهورين في كل من مصر ودمشق وبيت المقدس[1]. توفي والد المؤلف الشيخ كمال الدين وعمر مصطفى ولده لم يتجاوز عمره الستة أشهر، فتولى تربيته ابن عمه المولى كمال الدين[2]، وأقام عنده في داره الكائنة قرب البيمارستان النوري[3]. ونشأ في جو علمي وأدبي عَوض له جو والده الذي افتقده صغيرًا، من ثَمَّ كان بداية الطريق الذي سلكه وأتمه على يد أشهر شيوخ عصره، مثل الشيخ محمد بن إبراهيم الدكدكجي، والشيخ عبد الغني النابلسي، والملا[4] عبد الرحيم بن محمد الكابلي، فضلًا عن تلقيه العلم على يد مشايخ كُثر قابلهم في دمشق وفي أثناء رحلاته التي قام بها.

وقبل أن يتجاوز الصديقي العشرين من العمر أخذ الطريقة الخلوتية –سيرد التفصيل عنها لاحقًا– عن شيخ الخلوتية عبد اللطيف بن حسام الدين الخلوتي الذي كانت وفاته سنة1709/1121[5]. وكانت علاقة الصديقي بشيخه علاقة متينة، وفي هذه الأثناء أقام الصديقي في حجرة في إيوان المدرسة الباذرائية[6] بهدف الانعزال والاشتغال بالأوراد. ومرحلة انعزال مصطفى هذه تعَّد بداية الشهرة بالنسبة إليه كصوفي وشيخ طريقة. والصديقي عاش ثلاثًا وستين سنة هجرية يمكن تقسيمها إلى مرحلتين، الأولى: وهي مرحلة استقراره في دمشق، وتستمر من ولادته حتى رحلته الأولى إلى القدس سنة 1710/1122، والثانية: ومدتها أربعون عامًا قضاها في الترحال والتجوال ما بين بلاد الشام ودار السلطنة ومصر والعراق، ومع ترحاله الكثير إلّا أنَّ مكان استقراره بين سفرة

كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، 5 أجزاء، دمشق، 1957/1376، جـ2، ص: 271. الحصني، محمد أديب الدين، منتجات التواريخ لدمشق، بيروت، ط1، 1399هـ/1971م، ص: 636.

[1]- عن أشهر من أنجبت عائلة البكري: الصديقي، محمد توفيق البكري، بيت الصديق، مصر، 1323هـ .

[2]- هو أحمد بن كمال الدين بن محي الدين بن عبد القادر البكري الصديقي ابن عم المؤلف، ولد في دمشق سنة1729/1042، وتسلم عدة مناصب في أثناء حياته، وكانت وفاته في مصر في 25محرم 117 هـ. للمزيد: المرادي، سلك الدرر، جـ1، ص: 149.

[3]- بناه الملك نور الدين محمود بن زنكي في دمشق 549هـ/1154م. كرد علي، محمد، خطط الشام، 6 أجزاء، دمشق، 1982م، جـ6، ص: 146.

[4]- الملا: أو منلا مأخوذه من كلمة مولى، للمزيد:

R. Dozy , Supplement Aux Dictonna- Ires Arabes, Paris, 1927, II, P: 608.

[5]- المرادي، سلك الدرر، جـ3، ص: 123.

[6]- تقع المدرسة الباذرائية في دمشق داخل الفراديس والسلامة شمال جيرون وشرقي الناصرية الجوانية، وكانت قبل ذلك دارا" تعرف بـ "دار أسامة"، أنشأها الشيخ نجم الدين أبو محمد نجم الدين الباذرائي المولود سنة 594هـ/1197م. للمزيد: النعيمي، عبد القادر، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، جزءان، دمشق، 1948م، جـ1، ص: 205.

وأخرى كان في بيت المقدس، وهذا ما جعل الجبرتي يذكر عند الترجمة للصديقي أنه نشأ في بيت المقدس على أكرم الأخلاق[1].

كانت أول رحلة للصديقي إلى بيت المقدس عام 1710/1122، وفيها كتب مصنفه في الأدعية وعنوانه "الفتح القدسي"، وبعدها "عاد إلى دمشق في شعبان من السنة المرقومة وانتشرت طريقته وخفقت في الإقليم الشامي ألويته وهو فيما بين ذلك مشتغل بالتآليف...."[2]، ولكنه تردد على بيت المقدس في الأعوام التالية حيث تعرف إلى الوزير رجب باشا الذي صحبه في رحلته إلى القاهرة، وذهب في كنف هذا الوزير من بيت المقدس إلى استانبول في أوائل العام 1135 تشرين أول 1722، فوصلها في السابع عشر من شعبان 24/1136 أيار 1723، ورجع إلى بيت المقدس بعد ذلك بأربع سنين، وحج إلى مكة عام 1148 1735، وكان قد نوى الحج منذ عام1717/1129، ولكنه انصرف عن ذلك لخلاف حصل بينه وبين عمه بسبب عدم تزويجه ابنته.

ذهب الصديقي إلى استنبول ثانية عام 1735/1148 ثم عاد بحرًا عن طريق الإسكندرية فالقاهرة، وفي حجته الثانية ذهب إلى ديار بكر ومكث بها ثمانية أشهر، ورجع إلى بيت المقدس في شوال 1152/ كانون الثاني 1740 بعد أن قضى في نابلس أحد عشر شهرًا، وبقي في بيت المقدس حتى عام 1747/1160، حيث عزم على السفر إلى مصر وهناك استقر قرب الجامع الأزهر "وهو مقبل على الإرشاد والناس يهرعون إليه مع الازدحام الكثير حتى قل أن يتخلف عن تقبيل يده جليل أو حقير"[3]. وبقي على هذه الحال إلى شهر شوال 1161/أيلول 1748 فعزم على الحج للمرة الثالثة، ولكن لم يتسن! له ذلك بسبب المرض الذي أودى بحياته في ربيع الثاني1162/ آذار1749 فدفن في تربة المجاورين مقبرة أجداده[4].

كان لنشأة الصديقي في بيت عمه الأثر الكبير في حياته بشكل عام، فمن جهة عوض له المحيط العلمي والأدبي الذي افتقده طفلًا، ومن جهة ثانية فإن ولاء ابن عمه للدولة العثمانية وحبه للجاه والمناصب جعل مصطفى يزهد من حياتهم، وهذا ما دفعه

[1] – الجبرتي، عجائب الآثار، جـ1، ص: 165.

[2] – المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 91.

[3] – المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 194.

[4] – المصدر السابق: جـ4، ص: 199. أيضًا:

C. Brockelmann, Al Bakri, Mustafa, Encyclopedie, Del, Islam, Paris, 1913, I, P: 91.

للنزول في المدرسة الباذرائية ".... وهو فيما بين ذلك مشتغل بالتأليف والزيارات نازلًا في المدرسة الباذرائية كما تقدم غير ملتفت إلى أحوال بني عمه من حب الجاه والمناصب"[1]. ومن ثَمَّ انصرف للزهد والتصوف الذي توجه باتباعه الطريقة الخلوتية التي خَصَّصَ باقي حياته لخدمتها، وذلك بالدعوة لها في الأقطار كلها التي سافر إليها، حتى إن عدد تلامذته ومريديه بلغ أكثر من مئة ألف مريد[2]، وبهذا الخصوص يذكر المرادي –أهم من ترجم لحياة الصديقي–" ولما بلغت تلامذته مائة ألف أمر بعدم كتابة أسمائهم وقال هذا لا يدخل تحت عدد"[3]، ويمكن تعرّف المركز المهم الذي بلغه الصديقي كشيخ طريقة من خلال الاطلاع على من ترجم لهم المرادي. غير أن إخلاص الصديقي للطريقة الخلوتية لم يقف حائلا" بينه وبين الطرق الأخرى، فقد أخذ الطريقة القادرية[4] في إحدى رحلاته من شيخ السجادة القادرية ياسين القادري الكيلاني عندما مر بحماة عام 1722/1135، وأخذ الطريقة النقشبندية[5]عن القطب العارف مراد الأزبكي البخاري النقشبندي[6].

---

[1]- المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 191.

[2]- عزا البرت حوراني في عرضه للاتجاهات في القرن الثامن عشر بروز الطريقة السمانية في الحجاز– التي مهدت بدورها لبروز كل من الحركة التيجانية في شمال افريقية والمهدية في السودان– إلى تأثير مصطفى البكري. شيلشر، دمشق....، ص: 191.

Hourani, Albert: The Fertile Cresent in the Eighteen Century, A vision of History, Beirut, 1964, P: 55.

[3]- المصدر السابق، جـ4، ص: 190.

[4]- تعود هذه الطريقة إلى مؤسسها القطب الصوفي عبد القادر الجيلاني 470–561/1077–1166، الشريف النسب لأمه وأبيه، ولد بجيلان، وتوفي في بغداد التي تعدُّ مركز القادرية التي انتشرت منها إلى باقي الأصقاع الإسلامية، وبشكل عام فقد حظيت القادرية برعاية السلطة ورجال الدولة في بلاد الشام وخاصة في العهد العثماني. للمزيد: المرادي، سلك الدرر، ج2، ص 295.الغزي، نجم الدين، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، 3 أجزاء، بيروت، 1945–1959، جـ1، ص: 138. العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، 1981، ص: 329.–311/10

[18]- أسس هذه الطريقة الشاه نقشبند محمد بهاء الدين البخاري 717–792هـ/1317م، والنقشبندية هي طريقة دراويش نشأت في فارس، وتمتاز بطريقة خاصة بالذكر، لها فروع عدّة في الشرق، ومبنى النقشبندية تقديم الجذب على السلوك بخلاف باقي الطرق التي تقدم السلوك على الجذب، وهذا ما جعل بعضهم يقول بداية طريق النقشبندية هو نهاية سائر الطرق. الخالدي، أحمد النقشبندي، الطرق الصوفية، تحقيق: أديب نصر الله، ط1، بيروت، 1997، ص: 26.

[6]- المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 194.

لم يهدف الصديقي من سفره إلى العاصمة العثمانية الحصول على وظيفة، بل كان بهدف استقطاب مريدين جدد للطريقة الخلوتية، وهو هدف رحلاته الأخرى نفسه التي قام بها إلى بلاد الشام ومصر والعراق، ولم يكن الصديقي يزاول أي عمل يقتات منه وإنما كان "... قدس سره بجمع الكثرة مشهورًا وكان مصرفه مثل مصرف أكبر من يكون من أرباب الثروة وأهل الدنيا ولم تكن له مهمة تعلم ما يدخل ما يفي بأدنى مصرف من مصارفه"[1].

ثالثًا: مؤلفات مصطفى البكري الصديقي:

بلغ عدد مؤلفات الصديقي كما ذكرها المرادي نحو مئتين واثنين وعشرين مؤلفًا منها ما هو شعر ومنها ما هو نثر، تناولت هذه المؤلفات موضوعات عدة منها: صوفية[2]، وأراجيز في علوم الطريقة، ورسائل في من تأثر بهم من العلماء في حياته[3]، ولكن أكثر ما يهمنا من مؤلفات الرحلات التي كان هدفها دينيًا وصوفيًا، **فالديني** منها تجسد بزيارة الأماكن المقدسة في كل من القدس والحجاز، وزيارة مقامات الأولياء والصالحين والتبرك بما تضمه من مزارات وأضرحة، وأمَّا **الصوفي** فقد سبق وذكر وهو استقطاب مريدين جدد للدخول في سلك طريقته الخلوتية. وكما يذكر المرادي في سلك الدرر فإن الصديقي قد ترك اثنتى عشرة رحلة[4].

كانت إحدى هذه الرحلات رحلة " الخمرة الحسية في الرحلة القدسية "وهي مخطوطة فريدة في المكتبة الوطنية في برلين، وتتألف من 36 ورقة"[5]، ولكن هذه النسخة لا يوجد عليها تاريخ النسخ ولا حتى اسم الناسخ وما تزال هذه الرحلة مخطوطة كغيرها من رحلات الصديقي الأخرى. وسبب قيام الصديقي بهذه الرحلة رغبته الملحة لزيارة بيت المقدس، فكانت بدايتها في 9محرم 11/1122آذار 1710 وهي الرحلة الأولى التي قام بها إلى بيت المقدس، واستمرت حتى 15شعبان 1122/ 19أيلول 1710، وقد قام بها بصحبة خاله السيد يحيى حسن الموقع.

---

[1] المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 194. الحسيني، حسن عبد اللطيف، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق وتقديم: سلامة صالح نعيمات، جزءان في مجلد واحد، عمان، 1985، ص: 158–161.

[2] المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 197. المالح، محمد رياض، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، قسم التصوف، جـ3، ص: 437، يشتمل على مجموعة من المؤلفات الصوفية للصديقي فضلًا عن أوراده الموجودة في مكتبة الأسد في دمشق.

[3] عن مصنفات الصديقي: تيمور، أحمد باشا، فهرس الخزانة التيمورية، 4 أجزاء، القاهرة، 1941، جـ2، ص: 302، 377، جـ3، ص: 37. أيضًا: Brockelmann , g:vol (II), P: 308–348/351, S.I ,151, 805.

[4] المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 197.

[5] الصديقي، مصطفى البكري: الخمرة الحسية في الرحلة القدسية، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين، رقم Ma ,466,614.

رابعًا: الطريقة الخلوتية:

يعدّ ابراهيم زاهد كيلاني المؤسس الحقيقي للطريقة الخلوتية ابراهيم المتوفى في العام 738هـ/1305م بينما قام بتوسيعها وتطويرها الشيخ سراج الدين عمر لاهيجي الذي توفي في هرات غرب أفغانستان قرب الحدود الايرانية في العام 800هـ/1398م. وكان أكثر انتشارها في خوارزم وخراسان، وفي ايران مركز الطريقة في منطقة شروان. ودخلت الطريقة الخلوتية الأناضول على يدي أخي يوسف الخلوتي المتوفى في العام 810هـ/1408م. ولعدم اعتماد الخلوتية على نظام مركزي مثل المولوية والبكتاشية فقد انقسمت بعد مدة وجيزة إلى أفرع متعددة، ثم لم تلبث أن انتشرت في القرن السادس عشر في أنحاء الأراضي العثمانية كلّها تقريبًا[1].

بدأت الخلوتية تكشف عن تطورها الحقيقي في القرن السابع عشر، وبرزت فيها شخصيات لامعة، غير أن هذه التطورات دفعت بعض أوساط المتعصبين لمجابهة الطريق، فكانت الأحداث التي عرفت في التاريخ العثماني باسم حركة قاضي زاده وأنصاره تجسيدًا لحرب شنتها رسميًا ضد الخلوتية[2]. ولم تخمد هذه الحرب التي كادت أن تزعزع أركان السلطنة في أواسط القرن السابع عشر إلا بتدخل الصدر الأعظم للسلطنة العثمانية كوبريلي محمد باشا وحسمه الشديد لها[3].

انتشرت الخلوتية في بلاد الشام كباقي أراضي السلطنة، ويعود سبب انتشارها الكبير في بلاد الشام إلى كثرة شيوخها ومريديها، وقد يكون أهم دافع لهذا الانتشار عدم توريث شيخ الطريقة المشيخة، لأنها كانت تعتمد على تسليم مشيخة الطريقة لكل شيخ عالم بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة، وشهد بصحة عقيدته وكماله العارفون، فضلًا عن صحة نسبه. أمَّا بالنسبة إلى أهم مبادئ الطريقة الخلوتية فهو القول بوحدة الوجود[4] والحقيقة المحمدية.

---

[1] إحسان أوغلي: أكمل الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، مجلدان، ارسيكا، استانبول، 1999 ، مجلد (2)، ص: 184.

[2] إحسان أوغلي، الدولة العثمانية.....، ص: 205.

[3] إحسان أوغلي، الدولة العثمانية....، ص: 185.

[4] عن مفهوم وحدة الوجود: الراشد، محمد، وحدة الوجود من الغزالي إلى ابن عربي، دار الأوائل، دمشق، 2003.

خامسًا: رحلة الخمرة الحسية في الرحلة القدسية:

تعدّ هذه الرحلة من الرحلات المهمة في المرحلة العثمانية بسبب المعلومات التي وردت فيها عن الخلوة الصوفية بالنسبة إلى السالكين في الطريقة الخلوتية، إلى جانب بعض المعلومات الجغرافية والثقافية المتفرقة التي من ضمنها الأسلوب الذي كُتبت فيه الرسالة، وهو الأسلوب المسجوع المنمق، فضلًا عن عدد من النظم الشعري الذي يُترجم الصديقي من خلاله ما يختلج في نفسه من الشوق والحنين للربوع التي هو فيها، أي القدس.

استمرت رحلة الصديقي مئة واثنين وثمانين يومًا من 9محرم 1122/11آذار 1710 وحتى 15شعبان 1122/ 9أيلول 1710 ، أي في فصلي الربيع والصيف. وكانت الرحلة بصحبة خاله السيد يحيى الموقع بن المرحوم الحاج محمد جلبي الموقع، ومن خلال الرحلة يبدو أن خال الصديقي كان يملك دكانًا في القدس، وكان الصديقي يتردد إليه في بعض الأحيان[1]، وكان سفر الصديقي وخاله بصحبة الركب الشامي[2] في أثناء سرد المؤلف لأحداث رحلته اعتمد على عدد من المصادر أهمها رحلة عبد الغني النابلسي 1050هـ/1143م – 1641هـ/1731م[3] "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية"[4] وقد أخذ غير مرة عن النابلسي، وكان يذكر "قال شيخنا". أيضًا أخذ عن "الأنس الجليل بتاريخ القدس الجليل"[5] تأليف مجير الدين العليمي، وكان يعتمد على هذا المصدر من خلال ما ذكره النابلسي في رحلته أحيانًا عن الأنس الجليل، ومن الأنس الجليل مباشرةً أحيانًا أخرى. ومن المصادر التي اعتمد عليها الصديقي إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى للبيضاوي، والطبقات للشعراني.

---

[1] – الصديقي: الخمرة الحسية، ص: 19.

[2] – المصدر السابق: ص: 9.

[3] – هو أهم أقطاب التصوف في العهد العثماني، عالم وشاعر، له مساهمات في أنواع العلوم العقلية والنقلية المعروفة في عصره، ولد وتوفي في دمشق، وترك إنتاجا" غزيرا" في شتى العلوم، تجاوز 323 مصنفًا بين رسالة وكتاب، ترجم له أهم مصنفي عصره، وتناولت العديد من الدراسات العربية والأجنبية حياته ومؤلفاته، وطبع العديد مما خلفه من مصنفات. عن النابلسي ومؤلفاته بشكل مفصل: الغزي، كمال الدين، الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي، مخطوط من نوادر المخطوطات التي تضمنتها مكتبة آل النابلسي في صالحية دمشق. المرادي، سلك الدرر، ص: 35. علاء الدين، بكري، المسرد النقدي، مجلة مجمع اللغة العربية، جـ1، ك2، 1994م، ص: 97–115، جـ2 – نيسان – 1984 م، ص: 335–369.

Aladdin, Bakri; Abd Al Cani An. Nabulsi (1145–1751) oeuvre, et Doctrine, doctorates, Letters ,Volume II, Paris, 1985.

[4] – مخطوط: مكتبة الأسد، دمشق، رقم 3613، 349 ورقة، وقد حقق من قبل: أكرم حسن العلبي وطبع عام 1990م في دار المصادر في بيروت. سيتم الاعتماد في البحث على المخطوط.

[5] – وهو جزءان، طبع في القاهرة عام 1283هـ.

1- طريق السفر:

بدأ الصديقي رحلته بمباركته للسياحة، ثم بَيَّنَ الأهمية الدينية لبيت المقدس والمسجد الأقصى[1]. والصديقي لم يذكر مراحل رحلته يومًا بيوم، بل اكتفى بذكر تاريخ بداية الرحلة والأيام التي قضاها في بعض المدن، دون تحديد تاريخ لها. كانت بداية السفر من دمشق بصحبة الركب الشامي، الذي توجه نحو الجنوب الغربي إلى داريا، ثم إلى خان الشيح، ومنها تابعوا السير نحو سعسع[2]، ثم إلى القنيطرة[3]، ومنها إلى بنات يعقوب[4] حيث كان مبيت الركب في خانها، وفي الصباح الباكر واصلوا السير إلى المنية[5] "وكان الجو قد أطبق بالسحاب وفتحت للأمطار من كل جانب الأبواب فما أدركنا خان ذلك الجب اللطيف إلا وقد عمتنا رحمة اللطيف"[6]، وبعد قضاء الليل في خانها تابعوا السير نحو عيون التجا[7] التي "..... بها نعق بوم الخراب وقاربت أن تساوي التراب... ومن هذه المحطة تفرق أرباب الخلطة فالذاهبون نحو بيت المقدس يأخذون شماله والذي نحو مصر يأخذون غربًا ليقضوا آمالًا ثم بتنا ليلة وقد أضعف الشوق من المشوق حيله"[8]، وفي الصباح الباكر ساروا في أرض وعرة حتى وصلوا إلى

---

[1] الصديقي: الخمرة الحسية، ص: 2.

[2] قرية مبنية على السفح الشمالي لتل مرتفع تقع وسط أرض منبسطة كبيرة المساحة طينية حمراء، خصبة يسقى سهلها من نهر الأعوج. زكريا، أحمد وصفي، الريف السوري، محافظة دمشق، 1376هـ/1957م، دمشق، جـ2، ص: 408.

[3] تقع في جنوبي غربي سورية في وادٍ مرتفع من هضبة الجولان، ويذكر النابلسي في شعره سبب تسميتها بهذا الاسم بقوله: قنيطرة قد لقبوها لكونها يمر عليها البرد من جبل الشيخ؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، ص: 194.

[4] بنات يعقوب هو جسر يقع على نهر الأردن على بعد قرابة 2 ك.م جنوب بحيرة الحولة، وهناك اختلاف على مرحلة بناء هذا الجسر، أنشأ هذا الجسر لربط القوافل القادمة من فلسطين إلى دمشق، وهناك عدة أراء عن سبب التسمية بهذا الاسم. النابلسي، الحضرة الأنسية، ص: 30. صايغ، أنيس، بلدانية فلسطين المحتلة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، لبنان، 1968م، سلسلة كتب فلسطينية: 9، ص: 126.

[5] وتسمى بـ (خان منيه) وهي قرية تقع على الطرف الغربي لبحيرة طبريا، الموسوعة الفلسطينية، أربعة أجزاء، ط1، جـ3، ميلانو، 1984، ص: 103.

[6] الصديقي، الخمرة الحسية، ص: 6.

[7] خربة عيون التجار بقضاء (طبريا) أُقيم فيها خان زمن المماليك الشراكسة عام1440م، ورممه وجدده الوزير العثماني سنان باشا المتوفي عام 1595م، وقد كان هذا الخان الذي أُطلق عليه اسم تكية يقع على الطريق بين دمشق وبيت المقدس من جهة ومصر من جهة أخرى. الموسوعة الفلسطينية، جـ1، ص: 566. النابلسي، الحضرة الأنسية، ص: 33.

[8] الصديقي، الخمرة الحسية، ص: 7.

إلى جينين[1]، حيث أطلقوا الدواب لترعى من مرعاها الخصب، وبعد قضاء ليلتهم فيها توجهوا إلى نابلس[2]، ثم إلى قرية سنجل[3] حيث باتوا ليلتهم، ليتابعوا في اليوم التالي السفر إلى قرية البيرة [4] ثم إلى المكان المقصود. وفي القدس توجهوا لزيارة مزار الشيخ جراح[5].

قضى الركب في طريق السفر ستة أيام وخمس ليال. وفي مدينة القدس نزل الصديقي في بيت السيد محمد الطوافي، الذي كان أهل بيته "يكرموننا غاية الإكرام ويرأفون علينا رأفة الوالدة على طفلها في حالة السقام، وكان هذا المكان منزل الخال من قديم لما يلاقي من أهله من الإكرام والتعظيم"[6]. وبعد أن أخذ الصديقي قسطًا من الراحة اتجه لزيارة الحرم القدسي، وقد كرر الزيارة إليه غير مرة، في أثناء الإقامة هناك اتجهوا إلى مزار موسى الكليم، وفي الطريق مروا على قرية العيزريه شرق القدس قرب طور زيتا[7]، وعند

---

[1]– أو جنين، وسميت بهذا الاسم بسبب الجنائن التي تحيط بها، تقع عند النهايات الشمالية لمرتفعات نابلس لتطل على سهل مرج ابن عامر، ذكرها ياقوت الحموي بقوله (بليد بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ماء) الحموي، ياقوت، المختار من التراث العربي من كتاب معجم البلدان، السفر الأول البلدان الفلسطينية، اختار النصوص وعلق عليها: عبد الإله النبهان، دمشق، 1982، ص: 194. جنين، الموسوعة الفلسطينية، جـ2، ص: 83.

[4]– تقع نابلس في إقليم المرتفعات الجبلية الفلسطينية بصفة عامة، وجبال نابلس بصفة خاصة، وتعدُّ حلقة من سلسلة المدن الجبلية التي ترصد خط تقسيم المياه على طول امتداد القمم الجبلية من الشمال إلى الجنوب. وتقع على الطريق المعبدة التي تمتد من صفد والناصرة شمالًا حتى الخليل جنوبًا، الموسوعة الفلسطينية، جـ4، ص: 415.

[3]– قرية تقع على طريق القدس نابلس، شمال رام الله، وتشرب القرية من نبع وسط القرية يعرف عند الناس بـ (جب سيدنا يوسف)، وفي القرية آبار لجمع مياه الأمطار كثيرة شزاب، محمد، معجم بلدان فلسطين، ط1، دمشق، 1987، ص: 457.

[4]– تقع على بعد 16 كم شمال القدس، ويبلغ ارتفاعها 884م عن سطح البحر، وتحتضنها جبال القدس، وفي فلسطين يوجد أكثر من مكان يسمى بهذا الاسم لأنها ترجمة للفظ الآرامي (بيرتا) أي القلعة أو الحصن، شراب، المعجم، ص: 214.

[7]– وهو الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين الجراحي، أحد أمراء صلاح الدين الأيوبي، وقف الزاوية الجراحية في القدس، ودفن في زاويته المذكورة، وبظاهر الزاوية من جهة القبلة قبور جماعة مجاهدين يقال أنهم من جماعة الجراحي. العارف، عارف، المفصل في تاريخ بيت المقدس، ط1، القدس، 1961 م، ص: 239؛ العسلي، كامل جميل: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، مؤسسة آل البيت، 1981، ص: 104.

[6]– الصديقي: الخمرة، ص: 10.

[7]– وهو (جبل الطور) وعليه تقوم قرية الطور شرق مدينة القدس، ويشرف على المدينة بأسرها، ويبدو أن اسمه مأخوذ من شجر الزيتون الذي كان موجودًا بكثرة، وكان السيد المسيح عيسى بن مريم يلجأ إلى جبل الزيتون (الطور) هربًا من أذى اليهود. الموسوعة الفلسطينية، جـ2، ص: 522.

المزار أقام الركب في الخيام ستة أيام، وبعد انتهاء الموسم الكليمي ودعوا المزار وقفلوا راجعين إلى القدس، وفي طريق العودة زاروا جبل الطور وما يحويه من أماكن مقدسة[1].

أقام الصديقي في القدس في أحد شبابيك الأقصى العتيقة المطلة على جبل المكبر وحديقة الخاتونيه، حيث كان القلم والدواة ملازمين له في وصفه المسجد الأقصى[2]، وبعد قضاء عدة أيام في القدس –لا يذكر عددها– توجه إلى مدينة الخليل[3] بصحبة بعضهم، أثناء المسير كان يزور الأماكن المقدسة من مزارات وقبور، يضاف إليها البرك الثلاث (برك سليمان). وفي الجليل نزل في أحد خاناتها –لا يذكر اسمه– ثم انتقل إلى دار أحد أصدقائه قرب الحرم الإبراهيمي. وبعد نيل البركات من زيارته الخليل وما تحتويه من مزارات وقبور للأنبياء عاد إلى القدس حيث عمر الخلوة النحوية[4]، وفي أثناء الخلوة كان يقوم بزيارة بعض الأماكن المقدسة في القدس، وفي المناطق المجاورة لها، وفي كل ليلة كان يقيم الذكر وصحبه عند أحد المزارات، ومن الأماكن التي زارها في أثناء الخلوة –بهدف السياحة وإقامة الذكر– قرية بيت اكسا، وقرية سلفيت[5]، وقرية عورتا، وقرية جماعين[6]، وقرية حجه[7]، وقرية الطيبة[1]. وفي كل قرية كانوا يبيتون ليلة

---

[1]– الصديقي، الخمرة...، ص: 11.

[2]– الصديقي، الخمرة...، ص: 15.

[51]– هو الاسم الذي أطلقه الكنعانيون على هذه المدينة، ثم عرفت باسم (حَبرون) تقع في فلسطين، بنيت على سفح جبل الرمَيدة في حين كان بيت إبراهيم على سفح جبل الرأس المقابل له، ولما اتصلت حبرون ببيت ابراهيم سميت المدينة الجديدة (الخليل) نسبة إلى خليل الرحمن النبي إبراهيم عليه السلام؛ الموسوعة الفلسطينية: جـ2، ص: 352.

[52]– المدرسة النحوية أو القبة النحوية تقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من صحن الصخرة، وقد أنشأها الملك عيسى سنة 604هـ ، وكانت هذه المدرسة كما يدل عليها أسمها خاصة بتعليم علوم اللغة العربية من أدب ونحو وغير ذلك؛ العليمي، مجير الدين: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، القاهرة، 1283هـ، جـ2، ص: 399؛ والصديقي، الخمرة..، ص: 23.

[53]– وتقع جنوبي غربي نابلس، فوق رقعة جبلية ذات مناظر طبيعية جميلة بين جبال نابلس. سلفيت؛ الموسوعة الفلسطينية، جـ2، ص: 576.

[6]– وقد ذكرها ياقوت الحموي باسم جماعيل، والأصح بالنون، وسميت بذلك لكثرة من ظهر فيها من أهل العلم، تقع جنوبي غربي نابلس، وإليها ينسب عدد من العلماء والمشهورين. النابلسي؛ الحضرة الأنسية، ص: 64؛ الحموي: المختار من...، تقديم: النبهان، ص: 192.

[7]– اسم (حجة) آرامي الأصل، ويعني السوق، والمجتمع ومن معانيها العيد، وتقع غربي نابلس على بعد 18 ك.م منها. شراب، معجم بلدان فلسطين، ص: 290.

ليلة باستثناء قريتي طيبة والبيرة لأنهم سارعوا السير كي يصلوا قبل صلاة الصبح إلى الحرم القدسي، وينالوا البركة بأداء فريضة صلاة الصبح.

وبعد أن أخذوا قسطًا من الراحة اتجهوا نحو نابلس ويبدو أنهم مروا في الطريق بغابة منبسطة من أراضي السهل الساحلي –ذكرت تفاصيلها في الهامش السابق– وكان الوصول إلى نابلس وقت صلاة الجمعة. وفي هذه المدينة أقاموا أربعة أيام قضوها في زيارة مقامات الأولياء الصالحين ورياضها الغناء [2]، ثم عاد إلى القدس حيث أقام خلوته في المكان المعتاد –المدرسة النحوية– وعندما أنهى الخلوة قرر العودة إلى دمشق حيث سار معه مودعوه إلى مشارف القدس[3]، وكان الوصول إلى دمشق في 15شعبان 1122هـ/ 9 أيلول 1710م[4].

2- أهم المعلومات التي أوردها الصديقي في رسالته:

عاد الصديقي من بيت المقدس إلى دمشق وبدأ يعمّر خلوته الثانية في المدرسة الباذرائية. وليس من السهل فهم رحلة الصديقي ودراستها دون ربطها بنشأته وحياته، فالصديقي كما سبق وذُكر أخذ الطريقة الخلوتية وهو في مقتبل العمر، وأقام في المدرسة الباذرائية في دمشق للانعزال والاشتغال بالأوراد، ومرحلة انعزاله هذه كانت بداية الشهرة بالنسبة إليه كصوفي وكشيخ طريقة، ورحلته إلى بيت المقدس كانت التجربة الصوفية الأولى لنشر طريقته، وجمع المريدين لها، ومن هنا يمكن تفسير عدم اهتمامه بالنواحي الاقتصادية والسياسية والعمرانية (إلا فيما ندر)، وحتى ما يتعلق بالجانب الاجتماعي في فلسطين نظر إليه من خلال تجربته الصوفية، ولم يورد إلا ما يخص اهتماماته كمتصوف.

لم يكن اهتمام الصديقي بما أورده من نواحٍ سياسية ناتجًا عن اهتمام سياسي بما يدور حوله من أحداث، بقدر ما كان نتيجة خوف من قطاع الطرق واللصوص الذين انتشروا في تلك المرحلة الزمنية على الطريق الذي يسلكه المسافرون، وهذا واضح ممَّا ذكره عن قطاع

---

[1] وهي غابة الطيبة، قضاء طولكرم، تقع هذه الغابة بقسميها غابة الطيبة الشمالية، وغابة الطيبة الجنوبية، جنوب طولكرم غرب طريق حيفا– يافا الرئيسية، وتمتد هذه الغابة فوق رقعة منبسطة من أراضي السهل الساحلي، الغابات (قرى) الموسوعة الفلسطينية، جـ3، ص: 375.

[2] الصديقي: الخمرة...، ص: 31–32.

[3] الصديقي، الخمرة...، ص: 36.

[4] لم يذكر الصديقي الطريق الذي سلكه في أثناء العودة إلى دمشق. ولكن من الطبيعي أن يكون طريق الإياب هو نفسه طريق الذهاب.

الطرق الموجودين على الطريق الواصل بين عيون التجار وجينين[1]، وعن تجاوزات بعض الغفر وإزعاجهم للمسافرين وطمعهم بهم، ورد حاكم نابلس عليهم بإرسال بعض الجند لتأديبهم[2] ، أيضًا كان الطريق بين القدس والجليل يشكو من قطاع الطرق، حتى أن الغفر لازموا الركب لحمايته "ولم نزل سايرين وللركب مسايرين والخوف معنا رفيق من قطاع ذلك الطريق، وكلما قطعنا واديًا مخوفًا بكمين دفين بدا لنا آخر حتى وصلنا قوفين"[3].

ولم يكن قطاع الطرق هم مصدر خوف المسافرين على طرقات السفر فقط، وإنما شكل البدو خطرًا كبيرًا على أمن طرقات السفر بسبب القوة التي يملكونها [4] فهم "لا يرهبون اقتحام المهالك"[5]. وهناك إشارة أيضًا إلى وضع سياسي وجد في القدس في المدة التي سافر فيها الصديقي، وهي عدم السماح له ولصحبه بدخول القدس دون إذن من حاكمها[6]، ولم يفت الصديقي أن يذكر محاصرة الوزير نصوح باشا لقلعة الكرك .

كانت رحلة الصديقي فقيرة بالمعلومات الاجتماعية إلا ما يخص الجانب الصوفي، كما هو الجانب الاقتصادي الذي يمكن القول: إن الإشارة إليه شبه معدومة. أمَّا بالنسبة إلى النواحي العمرانية فقد ورد بعض المعلومات التي هي أشبه بالإشارات العابرة، كذكره مثلًا وجود خان في جسر بنات يعقوب، وخان آخر في جب يوسف حيث بات فيه "في أطيب عيش"[7]، وخان في الخليل، ووجود جامع في عيون التجار "وبداخل خانها جامع لطيف البنا متسع الأكناف منيف سامي الفنا، لم يقسم نصيب بالدخول إليه في حالة الذهاب لكن قد تيسر الوقوف عليه في الإياب، وهذا الجامع والخان عمارة المرحوم سنان باشا الوزير" [8]. أيضًا أتى الصديقي على ذكر جامع قرية طيبة[9]، وحتى المسجد

---

[1] الصديقي: الخمرة...، ص: 7

[2] المصدر السابق: ص: 8.

[3] المصدر السابق: ص: 19. وقوفين هي خربة قوفين وتقع على بعد 11 ك. م إلى الشمال من مدينة الخليل، الخرب والأماكن الأثرية؛ الموسوعة الفلسطينية، جـ2، ص: 325.

[4] عن دور البدو وموقف السلطنة العثمانية منهم؛ بن طولون، محمد: أعلام الورى لمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق: 1964، ص: 220-225.

[5] الصديقي: الخمرة...، ص: 21.

[6] المصدر السابق: ص: 9.

[7] المصدر السابق: ص: 6.

[8] المصدر السابق: ص: 7.

[9] الصديقي: الخمرة...، ص: 29.

الأقصى الذي نال إعجاب كل من زاره لحسن هندسته لم يتعرض لوصف أي ركن فيه سوى مقارنته من ناحية الحجم بالمسجد الأموي في دمشق وبأنه يبلغ خمسة أضعاف مساحة الأموي، وأنه يفوق بحسن بنائه كل ما بني[1].

أيضًا تعرض الصديقي لذكر برك سليمان[2]، والآبار الموجودة "في ساحة الكليم عليه عليه الصلاة والتسليم آبار للماء معده لجمع مياه الأمطار، وتسقي منها الزوار في هذه المدة"[3]. ومن القباب ذكر قبة الشيخ عبد الله في جب يوسف، وفيه ضريح موسى الكليم. أيضًا كما تعرض الصديقي لذكر قلعة جينين "ذات القلعة والحصن غير الحصين"[4]، وقلعة البرك، وأخيرًا وجود طواحين في مدينة نابلس. وهي أيضًا ذات مدلول اقتصادي .

3- الجانب الصوفي في رحلة الصديقي:

لم يتناول الصديقي ما يفيد غرض التصوف بشكل منهجي ليعطي صورة واضحة عن أغراض التصوف، وإنما دون نشاطه الذي مارسه في القدس، ومع أن هذا التدوين لم يكن يومًا بيوم إلّا أَنَّ ما ذكره يعطي كثيرًا من المعلومات عن التصوف في أواسط العهد العثماني، منها مثلًا المفردات التي يستخدمها السالك في الطريق الصوفي، يضاف إليها بعض المعلومات التي تفيد طقوس العامة في دخولهم طريق التصوف، إلى جانب ذكره لبعض المصادر الصوفية التي كانت متداولة في عهد الصديقي.

وأهم مظاهر التصوف، كما وردت لدى الصديقي:

أ- ظاهرة السياحة الصوفية:

شكلت السياحة الصوفية ركنا" مهما" من أركان الطريق الصوفي اعتمادا" على قوله تعالى[5]: "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأه الآخرة". وذلك تمثلًا بكبار المتصوفة الذين أتموا معرفة السياحة في تجربتهم الصوفية، وأصبحوا مثالًا يحتذى به لمن تبعهم من المتصوفة. والصديقي خير برهان على ذلك بالسياحة إلى الأماكن المقدسة المباركة، التي كان بيت المقدس أهمها. حتى إن الصديقي بدأ رحلته بمباركة السياحة عندما ذكر في الورقة الأولى "... الحمد لله الذي سار بمن اختاره للمعالي

[1] المصدر السابق: ص: 10.
[2] المصدر السابق: ص: 19.
[3] المصدر السابق: ص: 13.
[4] الصديقي: الخمرة...، ص: 13.
[5] القرآن الكريم: سورة العنكبوت، الآية: 19.

المقدسية وأدار على الأبصار كؤوس العقار فأسكر من اختارهم من الخمرة الإلهية وحرك دواعي أهل الهمم حتى قطعوا سبيل الغواية وعبر بهم على أسفن التقريب من بحر الهداية.. وهيج منهم السواكن إلى السير في البلدان والأماكن بقصد المهاجرة إلى البلاد المشرفة...".

فالسياحة الصوفية مباركة وخاصة عندما تكون إلى الأماكن المقدسة كبيت المقدس الذي يشبه في قداسته وحتى في قداسة مكة المكرمة وجغرافيتها:

وحكت مكةٌ الشريفة قدس ... من سنى مجد وقدر منيف
صخرة مثل كعبة هي فيها ... قبلة قبل محكم التصريف
ثم قسنا أبا قبيس بطور ... في الورى يستحق للتعفيف

ومن ثم فالحج إلى القدس هو الحج الأصغر الذي يبشر بالحج الأكبر إلى مكة المكرمة ".. وقد بلغنا من بعض الصالحين أن من زار بيت المقدس لابدَّ أون يرزقه الله الحج في ذلك العام أو بعده.."[1]

من فاته تلك المشاهد من منى ... فله المنا البادي بهذا النادي[2]

فقد شغلت زيارة المزارات وأضرحة الأولياء والصالحين، وإقامة الذكر عند أضرحتهم جانبًا مهمًا من رحلة (سياحة) الصديقي. والملاحظ أن تتبع فكر هؤلاء الأولياء الذين ضمهم الفكر الصوفي في التاريخ الإسلامي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر سليمان الفارسي، وسفيان الثوري، وابراهيم بن أدهم، ومعروف الكرخي، وذو النون المصري، وأبو زيد البسطامي... وغيرهم[3] يعطي صورة واضحة عن تطور حركة التصوف، وأهمية القدس لدى المتصوفة.

ب: الشيخ والمريد:

وجه الله شريعته إلى الخليقة جمعاء لتهديهم إلى الله، إنما من يريد أن يسعى إلى الله في مكانه وزمانه فدخول سلك الطريقة الصوفية هو الذي يوصله إلى مبتغاه، وهو

---

[1] الصديقي: الخمرة...، ص: 1.

[2] اللقيمي، مصطفى أسعد: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مخطوط مكتبة الأسد بدمشق، رقم 5248، ويتألف من 123ورقة. ص: 109. ومصطفى هذا كان أحد مريدي مصطفى الصديقي وأحد اللذين أخذوا الطريقة الخلوتية عنه.

[3] العسلي، كامل جميل: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، 1982م.

الطريق الذي يعيد الإنسان إلى أهل الوحي، ويجعله –بالمعنى الروحي– صاحبيًا وخليفة للنبي والأولياء، ولما كان الشيخ الصوفي هو نفسه متصلًا عن طريق سلسلة الأولياء بالنبي فهو المعني بهذه المهمة"... وشروط الإرشاد شروطًا كثيرة منها أن يكون للمرشد نسبة متصلة بالحبيب الرسول تلقاها عن أيمة سادة قادة فحول"[1] ونسب الصديقي نفسه الذي ذكره في رحلته[2] واتصاله بالخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه يؤكد أن الشيخ من نسل الأنبياء والخلفاء[3].

وعلى هذا فإن الشيخ الصوفي، وبمهمة الولاية التي تحتويها الرسالة النبوية نفسها هو قادر على تحرير المرء من العالم المادي الضيق المحدود وإطلاقه إلى فضاء الروحية المشرق غير المحدود، وعلى يد الشيخ نائبًا عن ممثل النبي يحصل الموت والانبعاث الروحي بفاعلية "البركة" التي هي فيه ولما كان الشيخ قد استقى من ينبوع الحياة الأبدية فإن روحه تعيش شبابًا دائمًا قادرًا هو على مد مريديه به.

تجاوزت الشروط التي وضعت للمرشد في الطريقة الخلوتية –والتي كان مصطفى البكري الصديقي أهم أقطابها في العهد العثمان– أن يكون للمرشد نسبة متصلة بالرسول الكريم (ص) فقط، بل أضاف إليها أن يكون حائزًا على مرتبة عالية من المعرفة في العلوم الشرعية إلى جانب علوم الطريقة والحقيقة، فضلًا عن ضرورة معرفة الشيوخ بالجانب النفسي للإنسان وحقائق الأمراض النفسية، وطرائق علاجها، ودقائق شهوات النفس وشركها الخفي وسبل هدايتها، والتخلص من دسائسها[4]. لأن هذه المعرفة لها دور كبير في قدرة مشايخ الطريقة على نشر طريقهم في أثناء سياحتهم الكثيرة والمتكررة.

أولى المتصوفة جل اهتمامهم اللعلاقة بين الشيخ المربي والمريد الطالب الصادق، لأن هذه الرابطة هي أساس الهيكل التنظيمي للطرق الصوفية، والعملية التربوية التعليمية لها. ورابطة الشيخ والمريد هي نوع من الصحبة[5] التي هي أعم من مجرد التلمذة والاتّباع، إنَّما هي من قبل **الشيخ:** تعهد وإرشاد ومراقبة ومحاسبة ونقد وتعليم وتبصر

[1]– الصديقي: الخمرة...، ص: 28.

[2]– المصدر السابق: ص: 3.

[3]– نصر، سيد حسين: الصوفية بين الأمس واليوم، ترجمة: كمال خليل اليازجي، ط1، بيروت، 1975م، ص: 70.

[4]– الشيخ مصطفى بكري الصديقي – فلسفته الصوفية ورسائله، دراسة وتحقيق: أمين أبو كرم، أبو ظبي، الإمارات المتحدة، 2002، ص: 68.

[5]– الصحبة هي ثلاثة أنواع: 1– صحبة من فوقك: وهي خدمة 2– صحبة من دونك: وهي تفضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والمزمة 3– صحبة الأكفاء والنظراء: وهي مبنية على الإيثار والفتوة؛ القشيري، أبو القاسم؛ وعبد الكريم بن هوزان: الرسالة القشيرية، مصر، ج2،1284هـ، ص: 574.

بأسرار الحياة الروحية، ومحبة وعطف وصرامة وحزم، وهي من جانب **المريد**: طاعة وحب وتفويض أمر وفناء في شخص الشيخ المرشد [1]. وقد ترجم الصديقي بشكل عملي لما سبق ذكره عندما ذكر ما حصل بينه وبين أحد أصدقائه ويدعى نور الدين عندما طلب إلى الصديقي وصله بطريق الخلوتية، وجواب الصديقي لصديقه نور الدين بالامتناع "... فامتنعنا خوفًا من عدم القيام وفرقًا من حل عقدة العهد المربوط فأجاب بقبول الشرط والنهي والأمر، ولو كان بالجلوس على الجمر وأمرته بالكتم دون الإشاعة وأوصيته بحفظ ناموس الطريق وعدم الإضاعة وشعر سلامة بذلك وأدرك الداعي فتح الله ما هنالك فألح وأبرم فأجبته راجيًا أن يسلك الطريق بي وبه أحسن المسالك..."[2].

ومن الجدير القول أن عدم التزام بعض مشايخ الطرق الصوفية بشروط الإرشاد المطلوبه لسلوك طريق التصوف الذي أقره الأولون كان له أثره في تدني مستوى التصوف في العهد العثماني، غير أن عدم الالتزام هذا قد وجد رفضًا له عند بعضهم وقد ذكر ذلك الصديقي في رحلته معتمدًا على رسالة وردته من أهم أقطاب التصوف العثماني في مصر، وهو عبد الوهاب الشعراني بـ "... أن أحد مشايخ فقرا هذه البلاد سبقنا لأجل القرا وتحصيل الزاد ومعه المزاهر والأعلام بقصد الشهرة والإعلام. وبات مني ناحية ونحن في أخرى. وجاء في الصباح يسألنا عن أحوال السكون عنا أحرى. فأخذ الأخ السيد محمد الأمجد يذكر لي عن كيفية إرشاده... فقال طريقتهم إذا جاء فقيرا" وأخذوا عليه العهد الخطير يقول له النقيب اجلس مريدا" وقم نقيبا" فيفعل ثم يقول له اجلس شيخا" وقم خليفة فيفعل ثم يدقون الطبول على رأسه ويقرون له الفاتحة ويخبره الشيخ بالإرشاد والدعوة لرب العباد فهل لهذا الفعل من سند معتمد عمن تقدم من أهل المدد..... فكان رد الشيخ الشعراني ما معناه... أن الحامل للأعلام والطبول إذا لم يدرس وضعها ومأخذها في الأصول وسر هذه الخرق الموروثة كامل شامل الخرق لا يجوز له حملها ولا لبسها ولا إلباسها وشروط الإرشاد شروطًا كثيرة...." [3].

جـ- منهج الصحبة أو منهج الذكر:

تسلك الطرق الصوفية في تربية مريديها منهج الصحبة أو الذكر، الذي يخضع لقواعد مضبوطة بالنسبة إلى جلوس المريد أمام شيخه أو مرشده وطريقة لفظ الأحرف حسب مخارجها، ويحدث الذكر في أماكن معدة لذلك "... وكنا نذهب أحيانا" معهم إلى اخريات

---

[1]- عفيفي، أبو العلا: التصوف، الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص: 216.

[2]- الصديقي: الخمرة...، ص: 22.

[3]- الصديقي: الخمرة...، ص: 27

المسجد نشتغل بالذكر والمذاكره.." [1]. وإقامة الذكر لا تقتصر على المريد فقط، إنما كل من سلك طريق التصوف عليه المواظبة على إحياء الذكر ليستمر اتصاله بالله تعالى. وقد تكرر قيام الصديقي بالذكر ضمن المكان المخصص للطريقة التي ينتمي إليها.

د- تصوف العامة وتصوف العلماء:

أقبل الناس على التصوف في العهد العثماني بأعداد متزايدة لعدم خضوع التصوف في درسه والترقي في درجاته إلى شروط خارجة عن نطاق إجازة الشيخ للمريد بالنجاح في مرحلة لينقله إلى مرحلة أخرى، فضلًا عن ذلك فقد كان للكرامات والخوارق وقضاء الحاجات ووجود الطعام بصفة دائمة في المراكز الصوفية دور مهم في جذب مختلف الطبقات إلى التصوف والصوفية[2]، ويمكن تسمية هذا النوع من التصوف بـ "تصوف العامة"، وقد أتى الصديقي على ذكرهم بـ "الفقراء" عندما رآهم في موسم موسى الكليم "... وكانت الفقراء بالطبول والأعلام ترد كل يوم أفواجا" على المقام ويحصل من البسط في هذه الأيام مالا يصفه واصف مقدام..."[3]، ولكن غلبة "تصوف العامة" في العهد العثماني لم يمنع انتشار "تصوف العلماء" ولو بنسبة أقل والذي قال النابلسي عنه بأنه علم صعب المنال، والمشقة للوصول إليه شديدة وصعبة[4]. وكثيرة هي كتب التراجم والرحلات التي أوردت أسماء العديد من علماء التصوف الذين سلكوا هذا الطريق في العصر العثماني رغم صعوبته.

هـ- ظاهرة المجاذيب:

أتى الصديقي على ذكر المجاذيب الذين يعيشون مع الفقراء في الزوايا، وكانوا في استقباله عند حضوره موسم موسى الكليم[5]. والمجذوب هو من أصابته الجذبة الإلهية لفنائه في حب الله، فأزاده الله وطار به بين المقامات دون علم ومجاهدة غير أنه غير مؤهل لمقام ورتبة المشيخة[6].

4- أهم نشاطات الصديقي في القدس:

---

[1]- المصدر السابق: ص: 2.

[2]- عطا، عبد القادر أحمد: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر عبد الغني النابلسي، ط1، بيروت، 1997م، ص: 84-186.

[3]- الصديقي: الخمرة...، ص: 12.

[4]- النابلسي: الحضرة الأنسية، ص: 151.

[5]- النابلسي: الحضرة الأنسية، ص: 12.

[6]- أبو كرم، الشيخ مصطفى...: ص: 66.

تنوعت نشاطات الصديقي بين التأليف وإقامة الذكر ومناقشة بعض المسائل الفقهية. ففي بيت المقدس وضع الصديقي عددًا من التصانيف نذكر منها رسالته "... النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية وبقيت في المسودة نرجو بياضها في شامنا لما نحل غياضها. وسودت وقايع شيخنا المرحوم الشيخ عبد اللطيف سامحه الحي القيوم وسميتها الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب ونرجو لها التبييض..."[1]. أيضًا وضع الصديقي في بيت المقدس "الفتح القدسي والكشف الأنسي" و "النهج القريب إلى لقاء الحبيب"[2].

كان من جوانب نشاط الصديقي كغيرة من الرحالة مناقشة بعض المسائل الفقهية مع المهتمين بهذا الجانب، وهذه المناقشات أتت خير مثال يعبر عن روح عصر الرحالة، ومن المسائل التي شغلت الصديقي بمناقشتها مسألة إباحة الدخان، فضلًا عن مناقشة ظاهرة الفقر كظاهرة صوفية، والجوع والزهد، ومسألة التجمل عند أهل الطريقة الشاذلية[3].

لا شك في أن هناك العديد من المسائل التي شغلت بمناقشتها رجال العلم والدين والمتصوفة، وقد أورد باقي الرحالة العديد منها في مجالسهم العلمية، لكن الصديقي كما يبدو من رحلته لم يخالط الناس كثيرًا، فقد زار بيت المقدس مصاحبًا لخاله وعمره لم يتجاوز الاثنتين والعشرين سنةً... وكنت ملازمًا على الخمسة أوقات بالجماعة وأنا متلحف برداء الخفاء كل ساعة وكنت في أغلب الأوقات أجلس في الدار أكتب تارة وأطالع فيما معي من الكتب خوف الاشتهار ولم يصحبني إلا أفاضل كرام أقوام..... علم الدين العلمي.... والشيخ يحى الدجاني...."[4].

إن خوف الصديقي من الشهرة لدليل على مكانته الصوفية الرفيعة من جهة، وعلى تقبل المجتمع المقدسي له كشخصية صوفية، وتقديرهم للصوفية من جهة أخرى. فالصديقي رغم صغر سنه بايعه أهالي دمشق خلفًا لشيخه عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي شيخا" للطريقة الخلوتية، لذلك لا غرابة أن يلقى من مجتمع القدس كل حفاوة وتكريم.

---

[1]- المصدر السابق: ص: 27.

[2]- المصدر السابق: ص: 17.

[3]- المصدر السابق: ص: 32؛ والشاذلية هي طريقة صوفية، أنشأها أبو مدين شعيب المتوفى سنة 594هـ/1198م، ولكن نسبت هذه الطريقة إلى أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة 657هـ/1259م، انتشرت هذه الطريقة في حدود ضيقة في دمشق وفلسطين على يد محمد المزطاري المغربي المكناسي الشاذلي المالكي الذي قدم دمشق؛ المرادي: سلك الدرر، جـ4، ص: 33.

[4]- الصديقي: الخمرة...، ص: 3.

سادسًا: نتائج البحث:

أعطت رحلة الصديقي "الخمرة الحسية في الرحلة القدسية" صورة مختصرة لجغرافية الطريق بين دمشق والقدس في أواسط العهد العثماني، فضلًا عن بعض المعلومات السياسية المتناثرة. غير أنها في الوقت ذاته قد جسدت جانبًا مهمًا من جوانب الحياة الثقافية في القدس، مثل انتشار الطرق الصوفية انتشارًا واسعًا ضمن طبقاته الاجتماعية كلها بسبب التشجيع والدعم العثماني لها، لدرجة يمكن القول فيها: إن التصوف قد بلغ عصره الذهبي في تلك المدة من حيث الانتشار، بل أصبح زبدة الدين وخلاصته، والموجه الأول لحياة العامة والخاصة، رغم الاختلاف الكبير بين تصوف العامة والخاصة. لكن هذا الانتشار الواسع لم يقلل من أهمية الفكر الصوفي–رغم تدني الوعي– ومن الحفاظ على قواعده للوصول بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال من خلال ترويض المتصوف لنفسه ولمحيطه لأن ".. نفس الإنسان هائلة الاتساع، فهي النظام الكوني بكامله، لأنها صورة عنه، فكل ما هو في الكون هو فيها أيضًا، وكذلك كل ما فيها هو أيضًا في الكون. وبناءً على هذا الواقع فالذي يروض نفسه فإنه يروض الكون بأسره، كذلك من يعنو لنفسه لا مناص من أن يعنو للكون برمته"[1]. والصديقي قد جسد ما سبق ذكره بمسيرته الصوفية وسلوكه الصوفي من خلال مصنفاته التي وضعها، وسياحته التي نشر فيها طريقته الخلوتية لاستقطاب أعداد كبيرة من المريدين.

[1]– نصر: الصوفية بين الأمس واليوم..، ص: 35.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر المخطوطة :

1. أسعد اللقيمي، مصطفى: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مخطوط مكتبة الأسد بدمشق، رقم 5248، ويتألف من 123 ورقة.
2. الصديقي، مصطفى البكري: الخمرة الحسية في الرحلة القدسية، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين، رقم 466 , Ma , 6149.
3. الغزي، كمال الدين: الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي، مخطوط من نوادر المخطوطات التي تضمنتها مكتبة آل النابلسي في صالحية دمشق.
4. النابلسي، عبد الغني: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، مخطوط، مكتبة الأسد، دمشق، رقم 3613، 349 ورقة.

المصادر المطبوعة:

1. القرآن الكريم.
2. ابن طولون، محمد: أعلام الورى لمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق، 1964م.
3. الجبرتي، عبد الرحمن: عجائب الأثار في التراجم والأخبار، 4 أجزاء، بولاق، 1297هـ.
4. الحسيني، حسن عبد اللطيف: تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق وتقديم: سلامة صالح نعيمات، جزءان في مجلد واحد، عمان، 1985.
5. الحصني، محمد أديب الدين: منتجات التواريخ لدمشق، بيروت، ط1، 1399هـ/1971م.
6. الحموي، ياقوت: المختار من التراث العربي من كتاب معجم البلدان، السفر الأول البلدان الفلسطيني، اختار النصوص وعلق عليها: عبد الإله النبهان، دمشق، 1982.
7. الخالدي، أحمد النقشبندي: الطرق الصوفية، تحقيق: أديب نصر الله، ط1، بيروت،1997.
8. العليمي، مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، القاهرة، 1283.

9. الغزي، نجم الدين: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، 3 أجزاء، بيروت، 1945–1959.
10. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان: الرسالة القشيرية، مصر، 1284هـ.
11. كرد علي، محمد: خطط الشام، 6 أجزاء، دمشق، 1982م.
12. المرادي: محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، 4 أجزاء، القاهرة، 1284هـ/1869م.
13. النعيمي، عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، جزءان، دمشق، 1948م.

المراجع العربية:

1. إحسان أوغلي، أكمل الدين: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، مجلدان، ارسيكا، استانبول، 1999.
2. أمين، أبو كرم: الشيخ مصطفى البكري الصديقي، فلسفته الصوفية ورسائله، أبو ظبي، الإمارات المتحدة، 2002.
3. البكري، محمد توفيق: بيت الصديق، مصر، 1323هـ .
4. تيمور، أحمد باشا: فهرس الخزانة التيمورية، 4 أجزاء، القاهرة، 1941.
5. الراشد، محمد: وحدة الوجود من الغزالي إلى ابن عربي، دار الأوائل، دمشق، 2003.
6. زكريا، أحمد وصفي: الريف السوري، محافظة دمشق، 1376هـ/1957م،
7. شراب، محمد: معجم بلدان فلسطين، ط1، دمشق، 1987
8. شيلشر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة: عطاف مارديني، ط1، مطبعة دار الجمهورية، دمشق، 1998.
9. صايغ، أنيس: بلدانية فلسطين المحتلة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، لبنان، 1968م، سلسلة كتب فلسطينية–9.
10. العارف، عارف: المفصل في تاريخ بيت المقدس، ط1، القدس، 961 م.
11. العسلي، كامل جميل: معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، مؤسسة آل البيت، 1981م.
12. عطا، عبد القادر أحمد: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر عبد الغني النابلسي، ط1، بيروت، 1997م.

13. عفيفي، أبو العلا: التصوف، الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة.
14. علاء الدين، بكري: المسرد النقدي، مجلة مجمع اللغة العربية، جـ1، ك2، 1994م، جـ2 نيسان 1984م .
15. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، 5 أجزاء، دمشق، 1957/1376.
16. المالح، محمد رياض: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، قسم التصوف، جـ3، يشتمل على مجموعة من المؤلفات الصوفية للصديقي فضلًا عن أوراده الموجودة في مكتبة الأسد في دمشق.
17. نصر، سيد حسين: الصوفية بين الأمس واليوم، ترجمة: كمال خليل اليازجي، ط1، بيروت، 1975م.

المراجع الاجنبية:

1. R. Dozy , Supplement Aux Dictonna- Ires Arabes, Paris, 1927 , II
2. C. Brockelmann, Al Bakri, Mustafa, Encyclopedie, Del, Islam, Paris, 1913.
3. Hourani, Albert, "The Fertile Crescent in the Eighteen Century ". A Vision of History, Beirut, 1964.
4. Aladdin, Bakri, Abd Al Cani An. Nabulsi (1145 – 1751) oeuvre, et Doctrine, doctorates, Letters, Volume II, Paris, 1985. 1